

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

ومن والاه

أما بعد فاني عثرت على كتاب فرنساوى ألفه حضرة الكونت هنرى دى كستري فى الدين الاسلامى ١٨٩٦ ميلادية ولما فرغت من قراءته وجدتني منساقا الى ترجمته فلم يدركنى ملل ولا نصب حتى أتيت على آخر الكتاب وعدت فراجعت الترجمة فاذا هى تكاد أن تكون حرفا بحرف ثم توجهت الفكرة الى طبع هذه الترجمة ونشرها على الناطقين بالعربية فاعترضنى بعض الاصدقاء بعد أن أريته شذرات من الترجمة وكان من رأيه عدم النشر بالطبع واحتج بان الكتاب وان كان غاية فى التدقيق قاصداً نهاية التحقيق غير انه اضطر الى ذكر ما كان يعتقد أنه مسيحياً والمصور الخالية فى الدين الاسلامى من الشناعات والسباب وذكر مثل هذه الاشياء وان كان على سبيل الرد عليه ربما اشمازت له النفوس ووقع من المطلعين عليه موقع الاعتراض وعدم القبول. فهو لا يروق من هذه الجهة جماعة المسلمين واننى لم يكن ليخطر ببالى مثل هذا الخاطر ولم يدركنى خلدي ان يعترض واحد على ذكر هذه الاشياء فى الكتاب وهى لم تذكر من المؤلف وهو مسيحى على انها حقائق بل اوردها على انها اوهام علقمت باذهان المسيحيين من تلك الاعصر وترتب عليها ارتسام المسلمين في مخيلاتهم بالصورة الشنعاء واراد المؤلف

ب

محو هاته الصور من مخيلات الاجيال الحاضرة فبرهن واقنع واستدل بالحجة القاطعة على ان تلك موهومات لا نصيب لها من الحقيقة وذكر اسباب ايجادها في النفوس ورغب الى قومه ان يستبدلوا تلك الصورة المشوهة بصورة الاسلام الحقيقي وما يدعو اليه من خير واصلاح . فلذلك لم اعول على رأى ذلك الصديق في التأخر عن الطبع الا انه اوجب عندي استشارة غيرى وغيره فرأيت امام الصديق المعارض اصدقاء موافقين وغيرهم مستحسنين وغيرهم آمرين وبالطبع غلب رأى الاكثرين رأى الواحد خصوصاً وانه لم يستند الا على شىء قال ربما يحصل ونحن نقول ربما لا يحصل وان حصل فهو من عدد قليل وانه لو لم يذكر المؤلف ما ذكره من تلك الموهومات ونبه على فسادها وبرهن على خلافه لبقى مركزاً في اذهان قومه وبقينا ونبينا عندهم على ما توهمه السابقون منهم اما وقد فعل فلا شبهة في انه خدم ما استطاع ووجب علينا شكره ما استطعنا ومن تمام شكره اعلام قومنا بكتابنا ولكننا لم نرد ان نأخذ بهدون اذنه واستمعناه الاذن فيه فتفضل بالاجابة وكان له بذلك كمال الشكر والامتنان

على ان امكان اشمئزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب من الاقوال التى ردها المؤلف ودل على خطاها بالبرهان لا يقابل الفائدة التى نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى ما خذها لا ينبغى له ان يلتفت الى ما عساه يكون من نفور بعض القراء فانهم لو انصفوا لما نفروا هذا وان قومي لعل علم تام من ان مقصد مثل حسن وغرضي انما هو التنبيه على انه قد وجد من غيرنا من قام للدفاع عنا بذكر الحقائق وسرد

ج

الوقائع التاريخية الصادقة فسفه رأى قومه فينا وابان لهم وجهى الخطاء والصواب
ومن الواجب علينا ان نعرف ما قيل عنا وما دفع به الدافعون وليتهم كانوا
منا وان نتعرف صاحبي الرايين فنعرف المخطئ ولا ندع له باباً آخر للطعن
علينا ونعرف لدى الصنيفة صنمه الجليل فنزيده اعتقاداً باستحقاقنا لما صنع .
وفينا كتاب الله اعظم مرشد لهذا السبيل فقد حكى بعض المذاهب بنصها
وفصها ورد عليها بغاية الايضاح والتبيين وعندنا كتب سادتنا الاولين في
علوم الاصول والكلام وكلها تحكى المذاهب الباطلة مفصلة وترد عليها .
ومن علمائنا السابقين من يوجب حكاية المذهب الفاسد ليتمكن المطلع من
الرد عليه بالدليل فاذا كان هذا هو الحال في المذاهب التي قررها اصحابها
ويخشى حقيقة من انتشارها لانها مبرهنة بنوع من البرهان وان كان
فاسد المقدمات فما الظن بما حكاه الغير عنا على غير وجهه اما غلطاً او قصداً
لفرض مخصوص . أظن انه لا يختلف اثنان في انه من أزم الواجبات
حكاية ما حكوه واشهار ما قالوه واذا كان الغرض في القسم الاول هو الرد
عليه فليكن الغرض من هذا القسم معرفة ما رمينا به وهذا بلا ريب ينتج
الرسوخ في العقيدة عندنا وينتج أيضاً اقتناع الواهمين بضد ما توهموه
وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ويحبها أفاضل العلماء

وفوق هذا فانا بذكرنا ما قالوه قدما علينا أو طعناً في ديننا أو صاحبه
عليه الصلاة والسلام نرجع الى أنفسنا ونبحث عما اذا كان لافواهم من أعمالنا
منتزع ام لا فان كان لهم منها منتزع علمنا كما هو الصواب انه ليس من أصل
الدين فلا نلبث ان نتباعد عنه ونرجع لأصل الدين القويم ولا نعيد عن

العمل به في أى حال من الاحوال وان لم يكن لهم من أعمالنا منزع ادركنا ان لهم غرضاً مخصوصاً وعملنا على مايزيل هذا الوهم من أنفسهم أو يدفع بهم الى تغيير غرضهم فينا وهم لاشك يجتنبوه اذا رأوا منا ذلك المنهج المعتدل والسير على الصراط المستقيم فان مقاومة الوهم بمثله لا تفيد

ثم انه لا ينكر ان في همتنا قصوراً عن البحث فيما يعتقده الناس فينا فاذا قبض الله لنا من بحث بدالنا ورد الشبه عنا فما اجدنا بقبول عمله واظهار الرضا به وما أولانا بنشر تحقیقاته بيننا حتى نعلم فائدتها جميعنا وربما جرتنا هذا الى الاشتغال بانفسنا فان ماحك جسمك مثل ظفرك ولا أحسن من ان يتولى الانسان مصالحه بيده مع حفظه حق مرشديه وعدم انكار صنيمهم الجليل

ولقد رأيت للمؤلف من التثبت في النقل والاعتدال في الحكم واستعمال الذوق في الرد واعمال العقل في النقد وطريقه والاستشهاد بالوقائع التاريخية مافاق به سواء من مؤلفي زمانه فبان لى انه غرضه الحقيقة أياً كانت ولا أوأخذه في بعض مواضع كتابه مما لم يطابق نقله الاحكام الشرعية اذ ربما اعتمد فيه على قول بعض النقلة وربما كان نقله صحيحاً على بعض المذاهب التي لم أقف أنا عليها ولذا لم ألاحظ عليه في الهامش ملاحظات مستقلة وفضلاً عن هذا فاني رأيت ان تكون الترجمة نقلاً الاصل برمته ليملم ماذا قصد وماذا كتب ويكفيها منه انه طالب للحق وان جاء في بعض آرائه ما عساه يحمل على الخطأ مثل الذى له في التأويل والحكاية عن اخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واعماله واعتقاداته. على انه لا يفوت هراء الترجمة ان الكتاب كتب

لينشريين قوم المؤلف وكان لا بد له من ملاحظة افكار المكتوب اليهم
وأحوالهم وربما اضطر في ذلك الى ابراز بعض الحقائق الثابتة عنده في صورة
الاحتمال والامكان كما يشير اليه كتابه الى ايدانا بنشر ترجمته كذلك لم أشأ ان
أكون معه من المجادلين لئلا تضيع الحقيقة او ينجر الامر الى الانكار على
صاحب مقصد حميد

هذا وانى تارك هنا ما نحن عليه من وقوف حركة النظر ومن تعطيل
قوة البحث في العلوم ومن ترك مادعينا للعمل به من قواعد الدين ومن
الابتداع فيه وعدم العمل بزواجره واجتناب نواهيه ومن اغفال ما حثنا
عليه من العلوم النافعة والتربية الناجمة فان ذلك وان كان له مساس بما نحن
بصدده الا انه يقتضى الشرح الطويل مما لا يحتمله هذا المقام ولكننا نقول
قولة مجملة بان الاسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يرضى منا
بالغفلة عن المنافع والمصالح ويطلبنا بدفع المفسدة ويحثنا على مكارم الاخلاق
ويبين لنا ان كل بدعة ضلالة وان كل ضلالة في النار وان طلب العلم فريضة
على كل مسلم ومسلمة وان العلم يطلب ولو في الصين وان لا شيء من العلم
بضار ولا شيء من الجهل بمفيد وان من احدث في الدين ما ليس منه فهو
رد عليه . هذه هي تعاليم الاسلام الا ان العصر الحاضرة قد خرجت
بالدين الى ما ليس منه فمطلت شعائره الحقيقية ودخلت فيه البدع وتغلبت
المعتقدات الفاسدة على القواعد الصحيحة وتمسك الناس بالبدع وتركوا
الفروض والواجبات وكاد القرآن يتلى مع الآلات المطربة والصلاة تؤدي
في الحانات واندثر العلم وانحلت العزائم وقعدنا عن تحصيل القليل من

ضرورياتنا وتأخرت التربية ففسدت الاخلاق وتناكرت النفوس فاختلقت
 المساعي وتماكست المقاصد فنفرت المنافع وانحل عقد نظام المسلمين
 فاصبحوا اشتاتاً يمتقهم الناس ويرمونهم بالانحطاط ويميرونها بما تنزه عنه
 شرعهم واكنهم ألفوه وبالغوا في التمسك به حتى تبدلت الاحوال وصار
 كما قال صاحب المنار (الجبر توحيداً وانكار الاسباب ايماناً وترك الاعمال
 المفيدة توكلًا ومعرفة الحقائق كفرًا والحادًا واثدًا المخالف في المذهب دينًا
 والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحًا واختبال العقل وسفاهة الرأي
 ولاية وعرفانًا والذلة والمهانة تواضعًا والخضوع للذل والاستبسال للضيم رضى
 وتسليماً والتقليد الاعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً)

نعم كان هذا كله واكثر منه مما نتمسك القلم عنه وانما سقنا ما ذكرنا
 معذرة لمن يفهم من الاجاب ان سوء حالنا آت من جهة ديننا وان
 رضوخنا للجهالة احدى دعائمه كما يتبين من عرض افكارهم في هذا الكتاب
 والدين برأ منه . وكيف نطلب منهم حسن الاعتقاد في الاسلام وهم يرون
 المسلمين يأتون من الاعمال مالا ينطبق على عقل ولم يقل به شرع اللهم الا
 اذا كان كما فهموه منا . انهم في الحقيقة معذورون اذا نسبوا اعمالنا هذه
 الى الدين فانهم لا يفرقون بين ما هو منه وما هو بعيد عنه وليس لهم الا ان
 يعتقدوا بان عملنا ما مور به لا منهي عنه

الى هنا نتمسك القلم ونترك القول للمؤلف سائلين القارىء ان يستصحب
 معه في قراءة هذه الترجمة ما قدمناه من الملاحظات وبالله الاستعانة وعليه
 الاتكال في صلاح الاعمال

مقدمة المؤلف

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى في ولاية حوران بين زرقوم
وسجير وخلفي ثلاثون فارساً كريماً من أولاد يعقوب يمشون جماعات
جماعات لان حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه
التالى يصل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه الى الورا، ويضرب بأرجله في الهواء،
وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام الكل
حاد على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمراها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينمش
الجمع من كلام أغلبه مديح في كآب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان
يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ما حفظه الشرق من
اسرار الأنحطاط النفسى في مثل تلك المعاملات وكنت اصغى الى اشعارهم
ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكأها أراجيز محبوكة
الاطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب
والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغريبين ادراك مرامها
وكنت ابلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء وبومنا
يوم جميل تنشط الابدان حرارته ويبلغ ضوءه حد البهاء وروائح تنمش
السالكين وتجعل المستنشق شاعراً بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك احساس
آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويفقدو فى أقوال

أولئك الشجعان . وبينما نحن سائرون على هذه الحالة اذ سكت الشاعر والتفت قائلاً بصوت خشن سيدى الآن وقت العصر . هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين أما انا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود أن لو انشقت الارض فابتلعتنى وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين واسمعهم يكررون بصوت مرتفع الله اكبر الله اكبر فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذاً لم يوجد فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظاً يبر عنه سببه الحيا والانفعال أحس بان أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم أرفع منى مقاماً وأعز نفساً ولو انى اطعت نفسى لصحت فيهم (انا أيضاً اعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد) فما أجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وحيادهم بجانبيهم ارسائها على الارض وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة . تلك هى الخليل التى كان يحبها النبي (صلى الله عليه وسلم) حباً ذهب به الى انه كان يمسح خياشيمها بطرف أزاره عملاً بوصية جبريل عليه السلام وكنت ارى نفسى وحيداً فى عرض هذه الصحراء على ما انا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يرم فيه الجسم الانسانى بغير احتشام تلوح على سمات عدم الايمان فى مكان هو مسقط رأس الديانات كأنتى من الحجر أو من الكلاب امام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وإيماناً . وبينما أنا كذلك اذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله

يسكن خيمة سام ويكثر من اولاد يافث . وقد كان الفريقان مجتمعين في ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم الله الذي دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذي يمتد ذكره بالحرب والفتوح ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتي جعلت اكتب ما علق بذهني من الافكار فاحسست انني منجذب بحلاوة الاسلام كأنها اول مرة شاهدت في الصحراء قوما يعبدون خالق الاكوان وذكرت خيام النصارى حيث لا تعبد فيها غير النساء وأخذني الغضب من كفر ابناء المغرب وقلة ايمانهم

كنت في سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات وبأخذ الاشياء من ظواهرها ويحل الخيال فيه محل النقد والتنقيب ويمتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سن لو انصف اهلوه لما كتبوا وألقوا وكنت ارى ان جمال الدين اصدق شاهد على انه الدين الحق وصرت أكتب في الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد .

ولو أنى اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابي مذموماً ورماني المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفي الجزائر من الاوروبائين . ذلك ان المشتغلين بالاسلام في هذه الايام فريقان المستشرقون الذين هم من افاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج ايضا ومما لاشبهة فيه ان القسم الاول قد افاد العلم اكثر من القسم الثاني فان اعمالهم انتجت كثيراً من العناصر والمواد التي يسهل بها اليوم وضع تاريخ الاسلام لان ذلك التاريخ لا يزال مع ما تقدم في عالم

الغيب وبعدهم يأتي مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة في العلم وسلامة النظر في الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور افكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه ديانتهم . معرفة لا تحصل لاحد في غير تلك البلاد وبهذا يرون ان لهم الحق في ان يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين نعم انهم لم يقفوا على جميع ما ألفه المسلمون في الحكمة وعلم الكلام ولكني لأرى ذلك نقصاً كبيراً اذ معرفة حقيقة الاسلام في هذا العصر لا تحتاج الى سعة اطلاع ديني على ان مطالعة جميع الكتب التي وضعت في مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرخ أكثر من غيره لان علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثاني عشر حيث أصبح الدين الاسلامي قوياً متيناً لا تؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت باصول الديانات الاخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمناً ايماناً لا احتياج لتحكيم العقل في تحصيله بل هو ايمان وجداني بسيط قوى في النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد في الامم المسيحية الا عند الفحامين

ومما اوجب الباحثون معرفته على كل مشتغل بالاسلام علم الاسماء المقدسة وهو علم دقيق لا يعرفه المستعربون كثيراً ولم يأت بالفائدة التي كانوا يقصدونها منه ومع ذلك فان العجب يأخذ منهم كل مأخذ اذا قرأوا ترجمة بسم الله الرحمن الرحيم التي تسبق كل سورة من سور القرآن اذ يظهر من تلك الترجمة ان واضعها اراد الوصول الى اصل معنى اللفظ في الوضع ونسى ان ذلك البحث ربما جر الى فقد المعنى الذي يحضر في الذهن

لسماعه ومن الواضح ان سعة العلم وغزارة المادة اذا بنيت على الفرض والتخمين لا يحتاج بها امام ما اتفق الشهور العام عليه قال المستشرقون ان رحمن اسم وضعت الديانة الوثنية المسيحية لاله الشفقة وهو جائز غير ان هذا اللفظ لا يدل عند المسلمين من يوم دخوله في لغة الاسلام الا على صفة من صفات الله الذي يعبدونه ولم يوجد واحد من بينهم ذهب الا انه اسم من اسماء الالهية المعروفة قبل الاسلام فلست أرى حينئذ ان المستشرقين مع احترامي لما يقولون قد اكتشفوا على امر يقدر في صدق القرآن وانه يلزم لذلك نزع معنى الرفق والحنان من لفظة الرحمن لانه معنى يطابق فكر جميع المسلمين في كل زمان ومكان

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التي تخولني حق الكتابة عن الاسلام قبل ان اشر كتابي هذا. أنا عاشرت العرب أزماناً طويلاً واشتغلت كثيراً بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبي مذهب مستعربي الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوي الاعتبار عفواً وليناً واطلب منهم قبل كل شيء أن لا يجمعوا بيني وبين اولئك الذين يعملون الى العرب فيكتبون عن الاسلام مائلقوه اثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولاً شعرياً حتى ان موسيو (لوازون) لم ينبج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبه التخيلات فكان ممن يرى كل شيء في الشرق جيلاً وجاء رأيه في الاسلام رأى قوال لا رأى باحث حكيم وعليه فلست أقصد بكتابي هذا أن امجد الاسلام ولكني لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التي اشتغلت بها أذهان الباحثين في العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية في باريس

نال بها المسلمون نجاحاً أدى الى ان المسيحيين ومنهم اولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه الى بعض اغلاط علفت بالافكار عندنا من حيث النبي العربي ودينه الاسلامي وهو عمل شاق ووقوف حرج اذ من المعلوم كما قيل انه لا يرسخ في الاعتقاد اكثر من خطأ الاعتقاد كذلك ارى انه لا يكفي لامة مسيحية متمدنة ان تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها ان تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغي فنحن نضحك اشفاقاً من سماع الاقايد التي تقرأها عن بغض المسلمين للمسيحيين ونقول اولئك قوم جهلة متعصبون وانهم في بغضهم لنا مخطئون الا ان المسيحيين هم كذلك في بغضهم للمسلمين لا يعدلون واشد الا وهام رسوخا عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبي ولذلك قصدت ان يكون بحثي اولاً في تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الادبية علني اجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدقه وامانته المتفق تقريباً عليها بين جميع مؤرخي الديانات واكبر المتشيعين للدين المسيحي